

بكالوريوس في المسرح . . وليس في حكم الشعوب

أن يكون الكاتب عصرياً معناه قبلاً أن يكون معاصراً . . . فالأصالة والمعاصرة وجهان لحقيقة واحدة ، وثمة سببية متبادلة بين الجانبين ، فبمقدار ما يكون أصيلاً ، يكون معاصراً ، وليس النقص في أحدهما إلا نقصاً في كليهما ، لأن العلاقة بينهما أشبه بعلاقة السوائل في الأواني المستطرقة . . تزداد أو تنقص معاً وفي وقت واحد ، بنفس القدر وعلى نفس المستوى !

ونعني بالأصالة تلك الطاقة الروحية الكامنة في ضمير الكاتب داخل الشعب ، أو المواطن داخل الوطن ، والتي تمكنه من معانقة أرضه واعتناق ماضيه . . لا بمعنى الانسحاق فوق تراب هذه الأرض ، والتعصب لهذا الماضي ، ولكن بمعنى التمثل والاستيعاب . . واستلهام القيمة الدافعة إلى التواصل والاستمرار . .

ونعني بالمعاصرة أن يعيش الكاتب عصره ، لا بمعنى الانفعال ولكن على مستوى الاستكناه ، فالكاتب المعاصر ليس صنيعه عصره ، بل هو صانع ذلك العصر ، هو محور ما يجري فيه من أحداث ، وهو صاحب ما تثار فيه من قضايا ، ومن هنا ، كان لزاماً على الكاتب العصري ألا يرتبط بالتاريخ ارتباطاً طويلاً فحسب ، وإنما يرتبط به كذلك ارتباطاً عرضياً ، بمعنى أن تترايط في وجدانه أحداث عصره ، سواء

على الصعيد المحلي أو الصعيد العالمى ، مشكلة فى ضميره بانوراما الإنسان المعاصر .
هاتان القيمتان . . الأصالة والمعاصرة ، هما الركيزتان المحوريتان اللتان تقوم
عليها أعمال الكاتب المسرحى « على سالم » بوجه عام ، وتقوم عليها مسرحيته
الشهيرة (إنت الى قلت الوحش !) بوجه خاص ، ومسرحيته الجديدة
(بكالوريوس فى حكم الشعوب) بوجه أخص !

فهنا مسرحيته تلخص تلخيصاً ذكياً واعياً ، أحداث ربع قرن من الزمان ،
تعاقبت على عالنا الثالث ، وراح فيها هذا العالم الثالث يبحث عن ذاته ، ويتعرف
على ملامحه ، ويستخلص مقوماته ، ولكن وسط علمين أعرق فى التجربة ، وأعمق
فى الممارسة ، هما العالم الغربى والعالم الشرقى . وجرب عالنا الثالث أن يتجه إلى كلا
العالمين . . ولكن دون جدوى ! فالعالمان كلاهما وجهان لعملة واحدة ، أحد
وجوهها (الصورة) بكل ما ترمز إليه من استعمار واستغلال ، والوجه الآخر هو
(الكتابة) بكل ما تتضمنه من ثرثرة أيديولوجية : وهذا معناه أن الشيوعية تقف
على أحد طرفى النقيض من أصالتنا فى الدين والتراث ، وتقف الرأسمالية على طرف
النقيض الآخر من معاصرتنا فى التحرر والاستقلال ، أياكون الخلاص إذن فى
(نظرية ثالثة) لا شرقية ولا غربية ؟ ولكن ما هى هذه النظرية ؟ وكيف تكون ؟
إنها فى عالنا الثالث لم تكن أكثر من مجرد (تطبيق) عاده التجربة والخطأ ،
ولكن التطبيق بدون نظرية واضحة لا يعنى سوى المزيد من التجربة والمزيد من
الخطأ ، والتجارب إن أجريت على الفئران فلا يجوز إجراؤها على الشعوب ، لذلك
لا بد من اللجوء إلى (البعد الرابع) فى الموقف كله ، إلى البعد الروحى ، البعد
الذى يتمثل فيه شرف الإنسان وكرامة الإنسان ، البعد الذى ناضل الإنسان طوال
تاريخه الطويل والمرير من أجل الوصول إليه ، والحصول عليه ، البعد الذى

لا يعارضه دين في السماء ، ولا تراث في الأرض ، ولا ضمير في الإنسان ألا وهو الديمقراطية !

فإذا سألتنا بعد ذلك عن هذه الديمقراطية ، جاءتنا الإجابة على لسان « طارق »
بطل هذه المسرحية حيث يقول في نهايتها :

« الديمقراطية لا تدرس ولكنها تمارس ، وليس هناك حاكم ديمقراطى وآخر غير ديمقراطى... هناك حياة ديمقراطية وأخرى غير ديمقراطية، والديمقراطية لا تصنعها المعاهد أو حسن النوايا ، ولكن تصنعها الشعوب . بأن تصر عليها وتموت من أجلها » .

« وأنتم يا من تنعمون بالديمقراطية فى بلادكم ، يا من تعتقدون أن التخلف والفقر والديكتاتورية شىء جدير ولاثق بنا فقط ، بدافع من الاحتقار وهو كما تعلمون خطيئة ، أقول لكم ، لستم بعبيدين منا . . . والعنف فى طرقات مدنكم هو امتداد للعنف العقلى الذى تفرضونه علينا فى أوطاننا ، وذلك عندما تتجاهلون أن الناس سواسية كأسنان المشط ، وهذا شرط أصيل فى الديمقراطية !

ولكى يجسد « على سالم » هذه المضامين جميعاً تجسيداً مسرحياً ، لجأ إلى قالبه الكوميدي الساخر والمآكر فى ذات الوقت ، الذى يستطيع من خلاله أن يقول كلمته بمرارة لا تخلو من الإضحاك ، أو بإضحاك لا يخلو من المرارة ، فهو وضحك كالبكاء ، ولكنه أمتع بكثير مما اعتدنا على تسميته بالكوميديا السوداء !

أليس هو القائل فى البيان الذى أصدره إلى جمهور المسرح ، فى بداية المسرحية « إن الهدف الأساسى والوحيد من تقديم هذا العرض هو تقديم سهرة ممتعة ومضحكة ومسلية وبعيدة كل البعد عن أى فكر جاد ، وفى حالة الاشتباه فى أن

المسرحية تحمل أفكاراً جادة من أى نوع ، فلا بد أن هذا قد حدث على سبيل الخطأ أو السهو . الأمر الذى نعتذر عنه مقدماً !

أما المسرحية فتدور أحداث فصلها الأول فى عنبر نوم فى المدرسة الثانوية العسكرية فى بلدٍ ما من بلدان العالم الثالث ، حيث مجموعة من الطلبة يتلقون تعليمات المشرف ثم الوكيل ثم المدير ، ثم يتكون لجال سبيلهم فيطلقون لخيالهم العنان ، فيفكرون على سبيل المزاح فيما لو قاموا بانقلاب عسكري ، وتولوا زمام الحكم ، وكيف أنهم بحكم نقائهم الثورى . . وشبابهم الفتى ، سيقضون على الفساد والرشوة ، على الإقطاع والاستغلال ، على الفقر والمرض ، ويحققون ما يخطر وما لا يخطر على بال .

وفجأة يصبح الحلم حقيقة ، والمزاح واقعاً ، وينجحون فى القيام بالانقلاب الذى يؤيده الشعب فيسمى ثورة ، وإذا بطلبة الثانوية العسكرية يصبحون حكاماً على البلاد ، ويرئيسهم « طارق » ، قائدا للثورة ، و مجلس قيادة الثورة ، حيث تدور أحداث الفصل الثانى ، ولكن لعبة الحكم لعبة بالغة التعقيد ، لا يقدر على ممارستها إلا من عرف قواعدھا ، والنوايا الطيبة وحدها لا تكفى ، والثقة دون الخبرة قد تضر ولا تنفع . . . والخبرة دون الثقة لاجدوى منها على الإطلاق ، إذن كيف تستقيم شئون الحكم ؟

إن الممارسة التى تعتمد على التجربة والخطأ ، لا تؤدى فى كثير من الأحيان إلا إلى المزيد من التجارب والمزيد من الأخطاء . وقائد الثورة بطهارته الثورية لا سبيل أمامه إلا الانفراد بالحكم ، بعد أن تأصلت شهوة الحكم فى كل من حوله ، وأغرقه كل من حوله فى دوامة لا تنتهى مما سموه باحتياطات الأمن ، وحماية الثورة . لذلك سرعان ما وجد « طارق » نفسه فى عزلة إجبارية ، عزلة فرضها عليه

جهاز الحكم ، فأبعده عن نفسه وعن شعبه وعن أقرب الناس إليه خطيته
« عابدة » !

ويراوده التفكير في التخلي عن الحكم ، والعودة إلى ثكناته العسكرية ، وترك
الحياة المدنية للمدنيين ، ولكن اللعبة كانت قد بدأت ولا بد لها أن تستمر ، وها هي
القوى العظمى تبرص به وبالبلاد ، ولكل قوة عملاؤها في المنطقة ، إذن فالبطولة
ليست في الفرار ولكن في الاستمرار ، ولكي يستمر بمنهج علمي ، يفكر في
استكمال ما فاتته من علم وثقافة ، وفي دراسة العلوم السياسية والاقتصادية ، وعلى
الفور يستجيب لنصيحة الخبير العالمي للأمن والسلاح . . في الالتحاق بأكاديمية
حكم الشعوب في سويسرا ، كي يحصل منها على شهادة البكالوريوس التي تمنح
حكمه الشرعية الشعبية والاعتراف الدولي ، وفي أكاديمية حكم الشعوب بسويسرا
تدور أحداث الفصل الثالث والأخير .

هناك يلتقي « طارق » بإخوانه من قادة الثورات في دول العالم الثالث ، ممن
مروا مثله بذات الظروف ولكنهم لنقص في وعيهم الثوري ، استحالوا دمي في أيدي
القوى العظمى ، التي تحركهم كيفما تشاء وتوجههم حسبما تريد ، غير أن المدرس
الأعظم الذي يتلقاه طارق هو شرح البروفيسور السويسري (لجمهورية أفلاطون)
وكيف أنها أشبه بجسم الإنسان تنقسم إلى ثلاثة مستويات ، في الأعلى حيث
الرأس تكمن القوى العاقلة ، وهي موطن الفلاسفة والحكام ، وفي الوسط حيث
الصدر تكمن القوى الغضبية ، وهي مواطن الجنود والضباط الذين يقومون على
حراسة المدينة ، وفي الأسفل حيث البطن تكمن القوى الشهوية ، وهي موطن عامة
الشعب .

وهذا معناه أن قيام الجنود والضباط بمهام الفلاسفة والحكام ، أشبه بوضع

الصدر فوق الرأس في تكوين جسم الإنسان ، وهذه الصورة المقلوبة هي ما تخرص القوى العظمى على أن ترى من خلالها دول العالم الثالث .

لذلك نرى « طارق » في نهاية العام الدراسي ، وقد تقدم لامتحان البكالوريوس في حكم الشعوب ، يجيب على ورقة الأسئلة على النحو التالي : (يقرأ) بصفتك حاكم عسكري . . . ما هو تقييمك للحكم العسكري ؟ (يجيب) أسوأ أنواع الحكم في التاريخ . . . (يقرأ) . . ما هو تقييمك لمناهج الدراسة في الأكاديمية (يجيب) . . . حق يراد به باطل . خدعة مدهونة ديمقراطية من أجل تثبيت الديكتاتورية في أنحاء العالم الثالث .

وهكذا ينسحب « طارق » من أكاديمية حكم الشعوب ليقول كلمته في وجه العالم كله ، ثم يعود فيتخلى عن الحكم العسكري ، معلناً أن الديمقراطية هي أفضل صور الحكم ، وأنها لا تدرس ولا تمارس ، وإنما هي حق لكل الشعوب .

وهذا المعنى ينتهي المشهد الأخير من مسرحية (بكالوريوس في حكم الشعوب) التي استطاع مؤلفها « على سالم » أن يحصل بها على تقدير الامتياز في الكتابة للمسرح الكوميدي ، وأن يثبت من خلالها أصالته الفنية ، ومعاصرتة الحضارية ، وقدرته على أن يعيد للمسرح التجارى صورته المدولة وليست المقلوبة ، وأعطى بها المسرح الهادف نحو التعبير بحرية والهاتف مجدية لافى غرائز الجمهور ولكن فى وجدان الإنسان .

لقد عرف « على سالم » كيف يعيد للمسرح وجهه الحقيقى ، وكيف يعرى عنه كل قناع ، أقنعة الرموز ، وأقنعة التلميحات ، وأقنعة الإسقاطات ، وأن يقول كلمته بحرية وجرأة ووعى ، فى مناخ ديمقراطى سلم يؤمن بأن الهواء الطلق خير من غرف الإنعاش ، وخيام الأوكسجين ، ويسمح لكل لالفتة . . بحرية الرأى وحرية

التعبير ، من أجل الهدف الأسمى الذى نسعى إليه جميعاً ألا وهو إعادة بناء الإنسان المصرى !

ومهما يكن من رأى يقال فى الإخراج المسرحى الذى تحمل عبء تجسيد هذا النص فوق خشبة المسرح ، والذى قام به المخرجان الصاعدان « شاكرو عبد اللطيف » و « فيصل عزب » ، فقد كان فى عمومته دون مستوى الكلمة . . . دون مستواها بكثير ، ولولا قوة الكلمة ، وحبكة البناء ، وطرافة الكوميديا ، لتأثر هذا كله بضعف مستوى الإخراج ، وهو الضعف الذى بدا واضحاً فى الفصل الثالث حيث بطء الإيقاع . . . ورتابة الحركة ، والإشعار بالمط والإطالة . وكان يمكن للمخرجين أن يجدوا حلوأ أفضل للاحتفال الدولى الذى أقيم لحصول « طارق » على البكالوريوس فى حكم الشعوب ، ولو باستخدام الأشرطة السينمائية أو باستخدام الإضاءة بدلا من وضع جهاز التليفزيون فى مقدمة المسرح ، بهذه الصورة الساذجة ، وظهور « طارق » فى نهاية خشبة المسرح بهذه الصورة الأكثر سذاجة .

كذلك لم يكن نموذج جسم الإنسان الذى أجرى عليه البروفيسور السويسرى شرحه (لجمهورية أفلاطون) فى المستوى الجمالى أو التشكيلى الملائم . كان قبيحاً بحيث لا ينطبق عليه وصف البروفيسور السويسرى ، هذا فضلا عن الديكور والإكسسوار اللذين لم يوحيا على الإطلاق بجو الأكاديمية الفخم ، المقامة فى جنيف والتي تدرس فيها أساليب حكم الشعوب . كذلك لم يستخدم المخرجان فى الفصل الأول لا المؤثرات الضوئية ولا المؤثرات الصوتية التى تكفى للإيهام بجو الانقلاب العسكرى ، كانت المؤثرات فقيرة وضعيفة بوجه عام .

وباستثناء الزى المبكر إلى حد ما ، لقادة الثورة ، لم تكن باقى الأزياء مما يوحى

بحو الفانتازيا الكوميدية.. وخاصة أزياء خبير الأمن الدولى ، وتاجر السلاح العالمى ، وفراش أكاديمية حكم الشعوب .

ولا أدرى كيف يمكن لمثل هذا النص المتكامل مضموناً وشكلاً ، أن يعهد بإخراجه إلى اثنين ، أين إخراج (شاكر عبد اللطيف) وأين إخراج (فيصل عذب) ، أو ما هو دور كل منهما فى عملية الإخراج؟ فى تقديرى أن عملية الإخراج لو عهد بها إلى مخرج واحد بدلاً من مخرجين اثنين لكان ذلك فى صالح العمل ، سواء من حيث تكامل الرأى أو وحدة الرؤية !

فإذا انتقلنا إلى الأداء التمثيلى الذى يقف على قته الفنان الموهوب والمثقف معاً ، « نور الشريف » لاستطعنا أن نقول إنه كان إضافة حقيقية إلى العمل ، وإضاءة فنية لكافة جوانب العرض المسرحى ، فقد أحب (نور الشريف) دوره ، ومن خلال هذا الحب - عرف كيف يتمثل الدور ، وكيف يمثله ، كان أداءه نوعاً من السهل الممتنع ، الذى لا يقدر عليه سوى الفنان القدير ، التعبير على مفاص العبارة والانفعال على مستوى الفعل ، والحركة بمقدار ما تفسر الكلمة ، والإضحاك نابع من باطن الموقف دونما لجوء إلى أى تزييد خارجى ، لقد عرف « نور الشريف » كيف يعطى درساً لمهرجى الكوميديا من أصحاب الأصوات الزاعقة والحركات الفاقعة فى الأداء الكوميدى النظيف !

ثم يجيء « يحيى الفخرانى » فى دوره المثلث الأبعاد : خبير الأمن ، وتاجر السلاح ، وفراش الأكاديمية ليؤدى هذه الأدوار جميعاً بوعى وذكاء ومهارة سواء من خلال كتلته الجسدية المرنة ، أو بحة صوته المتميزة ، أو حضوره المتميز فوق المسرح ، وكان يجتق مركز إشعاع كوميدى متفجر الطيوبة نابض بالحياة .
ثم يجيء « على الشريف » فى دور (كاباكا) أحد قادة الثورة فى دول

العالم الثالث ، ليؤدى هذا الدور من خلال طريقته المعروفة فى أداء مثل هذه الأدوار على شاشة السينما ، وكنت أفضل له أن يبحث لهذا الدور عن أسلوب آخر فى الأداء يناسبه من ناحية ، ويناسب خشبة المسرح من ناحية أخرى .

والذى يحسب لهذا العرض الكوميدي ، هو مغامرة المسئولين عنه ، بتقديم كوكبة من شباب الأداء المسرحى ، الذين يتلمسون خطواتهم الأولى فوق خشبة المسرح ، صدورهم مملأى بالحماسة ، وقلوبهم عامرة بالحب ، وهم ولا شك نجوم المستقبل المسرحى ، الذين نستطيع أن نبشر بهم واقفين بالذات عند « عبد الهادى أنور » و « ممدوح وافي » و « على القاعود » و « محمد جبريل » .

تحية للمسرح الجديد ، الذى عرف كيف يجدد شبابه ، وكيف يحصل بالفعل على درجة البكالوريوس وبتقدير ممتاز فى الفن المسرحى .